الحريق . إلا أن قسما كبيرا من الخسائر لم يكن بالامكان تعويضه كالايقونات التي كانت تنتقل في العائلات من جيل الى جيل وثياب الزواج التقليدية التي كانت الفتيات تتلقينها من أمهاتهن وأمهات أمهاتهن منذ ازمان لا تطولها الذاكرة ، ولكن ذكرى هذه التقاليد كانت تحل محل التقاليد نفسها فتحفظها من الضياع .

ولم يكن القيصر والأمراء والبويار يشتركون بأنفسهم في عملية إعادة البناء بل كانوا يقتصرون على اصدار الأوامر وهم يجوبون على خيولهم ميدان العمل الواسع فيتمكنون من رؤية موسكو وهي تنبعث من الرماد . وفي هذه الأثناء كان ثمة مشهد آخر يستدعي الأسى ويتطلب عناية القيصر واهتمامه هو تقدم التتر في روسيا من جديد . فإلى الجنوب من موسكو وعلى بعد حوالي سبعين كيلو مترا والى الشمال الشرقي منها أيضا كانت ارض روسيا مغطاة بعظام المسيحيين والقرى قد نالها التدمير . وكان إيڤان في توبته الرائعة واستقامته يتحرق الى المسير لملاقاة الوثنيين على رأس جيشه ، وهكذا بدا حملته في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٤٧ بينما كانت تغطي الأرض طبقة كثيفة من الثلج ، ولكن الحرارة ما لبثت ان تغيرت على عكس ما هو معتاد وترك الجليد والثلج مكانهما لأمطار لا تكف عن الهطول . وعندما بلغ القيصر الغولغا في نحو من مطلع شباط فبراير توقف إيڤي جزيرة قرب نيجني حيث كان الڤولغا متجمدا وقدروا ان سماكة الجليد قد تبلغ مترا على السطح . وفي صبيحة اليوم الأول شهد إيڤان كارثة في المكان الذي يحتله . فقد كان من الطبيعي استعمال النهر المتجمد طريقا للعبور ، ولكن في اللحظة التي بدا فيها الجيش والمدفعية تنتظم للاستعراض رأى القيصر الماء ينبثق على طول حفتي النهر وصدوعا كبيرة تخطط سطح الجليد وما لبثت المياه أن ابتلعت فورا قسما من الجيش وبدا كان الله لم يبارك إيڤان الذي رأى في هذه الكارثة نبوءة شؤم . وبما أنه اعتقد بأن خطاياه لم يشملها الله بغفرانه بعد فانه رفض أن يتابع المسير وعاد الى موسكو ليتابع فيها حياة الصوم والصلاة وعهد بمتابعة العمليات العسكرية الى الأمير ديمتري بييلسكي .